المرأة في الأدب الذكوري
قراءة في ثلاثية "حكاية بحار" حنا مينة

د. بشرى عبد المجيد تاكفراست

تناقلت صفحات مواقع التواصل الاجتماعي هذه الأيام خبر وفاة الأديب السوري"حنا مينة"، الذي كذبته أسرته الصغيرة وأعلنت أنه لازال حيا يتمتع بصحة جيدة، فتذكرت ما قرأت له من روايات متميزة ومنها : ثلاثية " حكاية بحار"... وسنقف في الرواية على صورة المرأة باعتبارها تحتل مساحة كبيرة ومؤثرة في حركة هذا النص وتشكل أقوى دافع لدى السارد "حنا مينة" وهويمارس فعل الكتابة ويؤسس لمنظوره الحكائي، فالتعرف إلى طبيعة وجود المرأة في هذه الرواية أساس مهم من الأسس الموضوعية والفنية فيها... ولا تخلوالمعالجة التحليلية من الموازاة الفنية التي تحدث بين طبيعة صورة المرأة، والعالم الخارجي والداخلي الذي تمثله الرواية بشكل عام، وتمثله كل شخصية أوفعل ينتمي إلى هذه الشخصية بشكل خاص، هذه الموازاة تكمن في طبيعة الحكاية، ثم تتضح في طبيعة الأحداث والشخصيات، وتقدم آلياتها خلال مجموعة الإمكانيات السردية التي تتحدد في النص.

تختلف منطلقات الأحكام والتصورات والطروحات عن قضية المرأة باختلاف الثقافات والعقليات والمواقع الاجتماعية الطبقية، ودرجة الوعي بأهمية القضية. وقد انبرت الدراسات والأبحاث الذكورية المعاصرة إلى قضية المرأة كقضية إنسان ومجتمع عربي لا قضية نسائية حقوقية، وبالتالي فالاختزال والسلب الممارس على صورة المرأة أصبح صورة وانعكاسا لما يمارس على الإنسان العربي عامة، فكانت نتيجة هذه المعادلة أن تقدم المرأة أوتخلفها يقاس بتقدم مجتمعها أوتخلفه...

لقد استطاع الجنس الروائي في الوطن العربي تنظيرا وممارسة – وهو الذي يؤمن بأن الكتابة هي طريقة الحياة وليست تعبيرا عن الحياة – التوقف عند قضية المرأة كاشفا عن أوجه المعاناة التي تشكومنها في واقع يعيش التأزم والاستلاب، وسنتتبع ذلك مع شيخ الرواية السورية والشامية، وأحد أعمدة الرواية العربية الذي أثرى الخطابات السردية وتمازجاتها السيرية والواقعية "حنا مينة" (١)، ونقف بالضبط على قضية المرأة في ثلاثية " حكاية بحار "، مركزين ليس على وجود المرأة داخل العمل الروائي بل كيفية وجودها وطبيعته.

لّما كانت المرأة هي التي تكمل الرجل وتحقق توازنه ومن خلالها يولد البطل، فلا غروة، أن حب المرأة يكاد يكون مالكا قلوب أبطال "حنا مينة" في روايته، فتبدأ بالحب ومشكلاته ثم تتطور إلى نوع من الاحتجاج الفردي على بعض أزمات الاختلاف الفكري والقلق الوجودي، لتلامس في الأخير الواقع الذي كتبت فيه ، فتتعدد النماذج النسائية فنقف على الغزوالعنيف لأعماق النفس الإنسانية خاصة عند حدث الخيانة الذي يكون سببا في بلورة المحن والتوتر... هذا جعل من اللوحة السردية للمرأة تركز على الاستبطان والتأثر البيئي.

المرأة في ثلاثية "حكاية بحار" متلازمة مع البحر، فمن يقرأ أدبه يقف على هذه الحقيقة، فالمرأة بحر والبحر امرأة، فهي وجهه وهووجهها، فهما وجهان لعملة واحدة، كلاهما بالنسبة لحنا مينة صاخب ودود وقاس لين، مروض ومروَّض، وفيّ وغادر، وكلاهما كانا ميدانا لأبطاله.

فقد سار في مجموعته الروائية مسار التركيز والرصد للأفكار التي ظلت تكون مخطط حياته الفكرية النضالية التي أبى إلا توظيفها لخدمة تلك الطبقة التي كانت منبعه، والتي أغنى الجانب الاجتماعي فيها الجانب الفكري فيه.هذه الحياة البائسة المسحوقة التي بصمت كتاباته عامة والروائية خاصة فكان لسان حال طبقته في كل أنحاء الوطن السوري،بل أبرز اسم على خارطة المشهد الروائي العربي المعاصر نفعته التجارب القاسية وعمله في البحر في تصوير ما يريد أن يكون لا ما يراد له أن يكون.

المرأة إذن في رواياته هي نتاج الطبقة الشعبية بكل تجلياتها. تحمل دلالات اجتماعية أكثر منها فردية، فمعاناة الأم والزوجة والأخت والعشيقة في رواياته، هي معاناة كل الأمهات والزوجات والأخوات والعشيقات. هي المغامرة والتجربة وارتياد المجهول واكتشافه، مناقضة للرتابة الاعتيادية وهادفة دوما إلى التجديد والتغيير، أما نساء باقي الطبقات الاجتماعية فهن مغيبات بشكل غير مباشر لا يحضرن إلا عند انتقاد الطبقة التي ينتمين إليها، مما جعل من رواياته وثيقة تاريخية تؤرخ لفترة زمنية معينة من تاريخ المجتمع السوري.

يحملنا الروائي حنا مينة في روايته" حكاية بحار"(٢) إلى عالم البحر مع بطله " سعيد حزوم " من زمن الاحتلال التركي الذي حمل العديد من الأسر على الهجرة إلى زمن قيام حكومة وطنية سورية تتولى أمور الوطن والمواطنين السوريين مرورا بفترة الاستعمار الفرنسي للبلاد.... ويلحظ القارئ أن شخصيات الرواية تعيش تأزما، تخوض صراعا داخليا إضافة إلى صراعها المتعدد الوجوه مع قوى المجتمع وقوى الطبيعة، تبوح هذه الشخصيات بمكنونات نفوسها من خلال تذكرها وحوارها الداخلي وأحلامها وبقية تقنيات الاستبطان،فيصور حنا مينة شخصياته تدور خارج ذاتها لأنها مرتبطة بهذا الخارج ومتأثرة به، فهذا البطل "سعيد حزوم" نلحظ كيف كانت شخصية والده بكل خصائصها وأوصافها، والبحر بكل حبه له وبكل غرائبه وعجائبه وعرائسه، والمرأة (كاترين الحلوة) بكل إثارتها الجنسية والإغرائية، وكذا الممارسات النضالية التي لم يستطع يوما المشاركة فيها رغم اعترافاته بضرورتها، كل هذه الأمور استبطانية تفرض نفسها من خارج الشخصية التي لم تع أهميتها إلا بعد فوات الأوان :" لقد انتهى كل شيء الآن، فلم يعد الماء ملعبي ومملكتي. كابرت كثيرا، ورفضت تقبل هذه الحقيقة وأسررت على أنني لن أهرم، وسأظل ذلك البحار الذي كنته، لكن الأعوام، الأعوام الطويلة أوهنت قواي." (٣)

المرأة في الثلاثية لا تتنوع بتنوع الطبقات الاجتماعية، بل تتنوع داخل الطبقة الواحدة فهي: الوفية والخائنة، والشريفة والساقطة، والواعية وغير الواعية، الذكية والغبية، الثائرة والمستكينة... وقد تجمع المرأة الواحدة الكثير من هذه الصفات بل قد تتآلف فيها الصفة ونقيضها دون أن يسقط ذلك من كونها امرأة مثلت تلك الطبقة التي تعاني ويلات القهر والفقر والاضطهاد والاستلاب بشتى أشكاله، وقد وردت الشخصيات النسوية في رواية "حكاية بحار " على الشكل الآتي:

أ- المرأة / الأنثى / حواء:

فهي مصطلحات يوظفها حنا مينة للدلالة على شخصية المرأة بشكل مطلق دون تحديد اسم أولقب. فقد وردت في النص ٥١٢ مرة، فهويعني بها المرأة باعتبارها صنوالرجل، المرأة بكل أنوثتها سواء البيولوجية أوما فرضته عليها طبيعة المجتمع الأبوي الذي نعتها بأوصاف متعددة محددة لشخصياتها: الغواية، الدهاء الشيطاني، واللطافة والليونة وحدة العاطفة والإتكالية في كثير من الأمور التي تستعمل فيها القوة الجسدية. ولكي نفهم خلفيات هذا الطرح نرجع إلى وجهة نظر البطل "سعيد حزوم" الذي ينطلق من قاعدة مكتسبة لدى كل بحار عن المرأة تتشكل في مرجعين :

- الأول عام يجسد خصوصيات المرأة في المجتمع البحري (المتعة الجسدية) بل ذهب أبعد من ذلك حين تحدث عن الميناء فقال: " هذه المدينة لا تعترف للميناء بحقوقها. أول حقوقها خمارة وامرأة. حين ينزل البحار الغريب لا يذهب إلى الكنيسة. يبحث عن خمارة وامرأة."(٤)
- والثاني خاص يجسد خصوصيات المرأة كأم وأخت وقريبة والمتمثلة في كثرة الصلاة والدعاء والدموع، والاستعداد الدائم للعطاء.

ومقابل هذه التحديدات السلبية للمرأة داخل الرواية تتحدد إيجابيات احتواها الرجل كطرف ثقيل حيت ذكر في الرواية ٤٤٨ مرة، فهوالقوة والفحولة والتصدي وتحمل الأعباء والإقدام والبسالة.

ب- كاترين الحلوة:

وهي الشخصية النسوية الثانية، ذكرت في الرواية ٢٩٤ مرة، وهي من المهاجرين الذين قطنوا حي " الشرادق": حي البحارين والصيادين بمرسين"... الزمن، الفقر، البؤس، ألوى بهيبتها مذ كانت صغيرة، إنها ضحية."(٥) و" كان واضحا أن زواجها من "حبابا" ليس إلا ستارا."(٦) ثم إنه " لم يكن تاريخ المرأة معروفا." (٧)

يقدم حنا مينة هذه الشخصية على

أنها شخصية قوية لا يمكن الحديث عنها إلا بحضور الرجل، هذه المقابلة التي ما فتئ يبرزها في كتاباته الروائية... إذ عدم ربطها بالشخصيات الذكورية التي رافقتها في مسيرة حياتها فيه نوع من المجازفة فهويبعدها عن إطارها الموضوعي بشكل مكشوف. فعلاقة "كاترين" بصالح حزوم لم تتوقف عند حد المساعدة والحماية، بل تطورت إلى علاقة غير شرعية لأن زوجها حبابا " ليس إلا زوجا صوريا ولا يعدوأن يكون خادما محتقرا."(٨) ثم تتزوج الريس عبدوش"... أكبر الرياس في الميناء وأمهرهم...اللاذقية تحسب حسابه" (٩) وفي نفس الوقت هي عاشقة لسعيد حزوم بحجة أن "الريس عبدوش عجوز أيضا." (١٠)

الأم: وقد ذكرت في الرواية ٢٢٣ مرة، وهذا يؤكد أهميتها داخل الرواية خاصة أنها مرتبطة ببطلي الرواية سعيد وصالح، فهي أم الأول وزوجة الثاني، تمثل صورة المرأة المقهورة أمام التقاليد والعادات والتي ستكسرها فور وفاة زوجها واعتقال ابنها." كان العمل منقذا بالنسبة لها، وقد تغير موقفها منه، فلم تعد تخافه، ولا تستحيي منه... وتتحدث عن العمل كما تتحدث عن بيتها وأسرتها."(١١)... فهي عاملة منتجة تخدم وطنها... دون أن تتخلى عن دورها كأم في المجتمع البحري السوري، " فهي راضية بأن تكون ربة بيت، وأن تفني حياتها بالمطبخ والنفخ والإنجاب، والتوفر على تربيتنا، أختي وأنا، وإرضاء والدي الذي كان صموتا مهيبا نادر الضحك مع أنه غير عبوس وغير مرح بشكل يخرج به عن صورة الوقار التي يريدها طابعا مميزا له."(١٢)، ثم إن تصرفاتها كأم لن تختلف عن تصرفاتها وهي زوجة فقد "... تعودت ألا تسأل، ومن العبث أن تطرح امرأة البحار أوأمه مثل هذه الأسئلة على زوجها أوابنها." (١٣)

ت- عزيزة:

ذكرت في الرواية ١١٣ مرة، تتجلى أهميتها في كونها تعكس حقيقة من حقائق المجتمع التقليدي،فهي ضحية زواج غير متكافئ عمريا، إذ تزوجت رجلا أكبر منها بأربعين سنة،يتوفر على إغراءات مادية تنقلها من بيئة الفقر إلى باحة العيش الرغد..." زوجها كان عجوزا، وكان متزوجا غيرها، وكانت تجارته تبعده عنها."١٥٢الدقل واتخذت من علاقتها بسعيد حزوم وسيلة للانتقام من كل من اضطهدها واستغلها، لكن ما إن يتعرف هذا الأخير على "كاترين الحلوة حتى تغرب صورة "عزيزة " عن حياته "مثلما يأكل الكبير الصغير والقوي الضعيف، هكذا أكلت صورة كاترين صورة عزيزة، طمستها، محتها حتى كأنها لم تكن."(١٤)

ث- الزوجة:

ذكرت ٦٢ مرة في الرواية، تصور الرواية الزوجة على أنها امرأة تابعة للزوج في كل ما يقرر من أمور ولا يأخذ برأيها لأن ذلك ينقص من رجولته، فهي "... لم تقتنع ولم تحتج... إنها خائفة... موقفها السلبي لم يتقدم ليصبح إيجابا، التمرد غير وارد في قاموسها".(١٥)

وتقدم لنا الرواية ثلاث نماذج من الزوجات ولكل واحدة أسسها المختلفة التي بنت عليها حياتها، والمنطلقات التي تتزود بها، والنتائج التي ترغب في تحقيقها.

- النموذج الأول من الزوجات زوجة صالح، صورة لكل زوجات البحارين، امرأة شقية لا سعادة ولا اطمئنان في حياتها. دائمة الصلاة والدعاء حتى يعود زوجها من رحلة البحر سالكا غانما لبيته وأبنائه، تربت على الخضوع للرجل الذي يزداد بناء لرجولته على حساب هذا الادعان منها: " ازداد سرور والدي هذا الادعان من الوالدة يرضيه، صحيح أنه يتصرف على هواه وما يريده يصير، والكلمة الأخيرة له، لكن الموافقة تظل مطلوبة، إنه رغم صلابته، ينطوي على شيء من اللين الداخلي، ويسعده في النهاية ألا يعاكس وأن تكون آراءه محل تسليم الآخرين،ومنهم زوجته."(١٦)

فهي نموذج لامرأة المجتمع التقليدي المحافظ. وقد تتغير بعض الأشياء في حياتها، ليس رغبة منها في ذلك،أووعيا منها بضرورة التغيير، بل بفعل الاضطرار كما حصل لزوجة " صالح " حين اضطرت للعمل في غياب معيل آخر لأسرتها.

- النموذج الثاني من الزوجات تمثله "كاترين الحلوة"، فهي تتزوج مرات متعددة (حبابا / عبدوش/ زيدان / الريس/ اليوناني) لكنها لا تحافظ على طقوس الزوجية إلا ظاهريا... فهي تعطينا صورة المرأة الثائرة عن التقاليد بطريقة غير مباشرة، فكاترين لم يكن زواجها من أسياد الرجال وإصرارها على خيانتهم إلا انتقاما ضمنيا من المجتمع وتقاليده التي لا تسقط إلا على أمثالها.
- النموذج الثالث من الزوجات

"عزيزة"، فهي التي تنتقم لنفسها من التقاليد والأعراف الاجتماعية التي تمجد شرف الزوجة وتؤكد عليه.

ج- نساء المرافئ،

بالنسبة لهذا العالم يعطيه "حنا مينة " نكهة خاصة في روايته، فهويخصب في البيئات الفقيرة. وارتباطه بعالم البحر يعطيه مشروعية من نوع خاص تؤكد حتميته في عالم البحارة،إذ " يصبح الوصول إلى اليابسة، مجرد رؤيتها عزيزا إلى حد الجنون، ويصير جسد المرأة بكل تفصيلاته صورة مجسمة يكاد يقبض عليها في ظلام الليل."(١٧)

د - فتاة المخزن،

ورد ذكرها في الجزء الأول ٢١ مرة، أهميتها تتجلى في أنها تركت مكانا هاما في حياة البطل "سعيد حزوم"، الذي ظل محتفظا بالخاتم الذي أهدته إياه،" وكان الخاتم عزيزا عليه، وكان منذورا لعروس البحر ومن المحال أن يبعه."

ر- سيدة القصر،

وهي السيدة التي استضافت "سعيد حزوم" إلى بيتها، وردت في الرواية ٢٠ مرة، بدون اسم ولا أوصاف، لا نعلم عنها إلا أنها أعجبت بسعيد وبحبه للبحر ومنحته بيتها ليسكن فيه في الشتاء حتى يبقى قريبا من البحر" بيتي، على البحر بيتك.. في الشتاء يقفر الشاطئ، نعود نحن المصطافين إلى المدينة.نخاف الموج والريح والعاصفة. تبقى البيوت فارغة مهجورة... وتستطيع أنت أن تقيم... أن تشعل المدفأة. أن تجلب المعلبات وزجاجات النبيد، وتجاور البحر وتتحداه كما تريد، أوتتعبده كما تريد أيضا".(١٨) وبعد تردد كبير قبل الدعوة. وأهمية هذه الشخصية في الرواية تكمن في أنها ترافقنا من البداية المشهد السردي إلى نهايته، ثم إنها هي الشخصية التي يقطع البطل من أجلها الطريق مشيا من طرطوس إلى اللاذقية وهويحكي ما مر بحياته...

ع- الفتاة المناضلة في التشيلي،

ذكرت في الفصل الرابع من الجزء الثالث من الرواية "وهذه الفتاة ليست وحيدة بل في هذه البلاد كثيرا ما يحدث هذا..."(١٩)، وردت في الرواية ١٠ مرات، وهي العنصر النسبي الوحيد في الرواية. قادت مظاهرة التشيلي، منظرها وهي تتقدم المظاهرة وتشهر سلاحها كبقية المتظاهرين في وجه جنود "الفاشيست" والسلطة الذين كانوا يسعون للقضاء على المظاهرة قد أثار اندهاشا في نفس "سعيد" الذي لم يصدق أن المرأة تستطيع أن تتقدم الصفوف في مظاهرة مسلحة.

هـ - فوزية امرأة المطعم،

ذكرت في الرواية ٩ مرات، لم تكن جميلة ولكنها كانت شقية، كانت لا تتأخر في الدفاع عن نفسها مستعملة أي شيء طالته يدها، لذلك كان الكل يتقي شرها.

و- الفتاة السجينة،

ذكرت ٨ مرات. كانت عشيقة عطية سجنت لأنها " سرقت خاتم مخدومها الفرنسي وأعطته إياه مقسمة أنها وجدته في الطريق."(٢٠) فسجن هوالآخر لأنها ادعت أنه شريكها في السرقة...

ي- " روزا " امرأة الملهى في التشيلي،

ذكرت ٧ مرات، أهمية ورودها تكمن في أنها طرف منافي للفتاة التشيلية المناضلة، فكلاهما يعيش في عالمه خاص.

من خلال هذا الجرد للشخصيات النسوية في الرواية نلاحظ أن نوعية المرأة المطروحة هي المرأة الكادحة، وقد يبدوهناك خروجا عن هذه القاعدة مع " كاترين الحلوة " و" عزيزة" نظرا لثرائهن، لكن الواقع هوأنهن أصلا فقيرتان وأن الغنى الذي أصبحتا عليه هوفقط مكتسب، كما نلاحظ ثقل الشخصيات النسائية وتقارب حضورها في متن الرواية من ناحية العدد، زد على ذلك أنها تتطور بشكل تدريجي نحوالايجابي في وعي منهن بحقيقتهن وواجبهن الوطني (الأم، الزوجة، كاترين، عزيزة)، هذا يؤكد كذلك أن تتعدد نماذج المرأة في إبداع "حنا مينة" يصعب حصره، ويطول تحليله وتأويل دلالاته وإشاراته.

تحتوى رواية " حكاية بحار" على مجموعة من البنيات الأساسية تفرض نفسها بشكل بارز في أغلب الأحيان، وبشكل ضمني في أحيان قليلة. وقد حققت هذه البنيات تكاملها داخل النص من خلال تموقع هذه الشخصيات داخل البنية الاجتماعية التي تنتمي إليها، ومن خلال الموقع الأيديولوجي الذي تعبر عنه... هذا دون أن ننسى علاقة الكاتب بهذا العالم.

فبنية الحضور والغياب داخل الرواية تستقي أهميتها من ارتباطها بموضوع المرأة، فهي تعرف حضورا هاما، لكنه حضور ينحصر في مجموعة من المجالات على حساب غيابها في مجالات أخرى.فهي حاضرة كأنثى بكل مميزاتها الأنثوية، ثم

حاضرة كامرأة تقليدية داخل مجتمع تقليدي متخلف يحكمه نظام أبوي. مجتمع يموقع المرأة في محور خاص كونه وصنعه لها(أما،زوجة، عاملة...) بالمقابل تعرف المرأة غيابا في جوانب أخرى، فهي غائبة ككيان تنموي وطني، هي غائبة كشخصية اجتماعية لها ثقلها، هي غائبة ككيان قائم الذات غير تابع للآخر... هكذا نجد المرأة في الرواية حاضرة كذات غائبة كفعل. تمارس دائما تبعيتها للرجل : زوجا أوابنا أوأخا.

ونحن نتلمس بنية الوعي واللاوعي في نص " حكاية بحار" نلاحظ أن المرأة في المجتمع السوري، وفي الزمن الذي ترصده الرواية غير واعية لأنها تابعة لشخص غير واع. بحار ارتبطت حياته بالبحر سلبا وإيجابا، غير متعمق الفكر في أكثر الأمور المحيطة به. صحيح، أن أبناء المجتمع البحري كما في الرواية كانوا يكنون حقدا للأتراك أولا وفرنسا ثانيا... لكن دون ترجمة أبعاد ذلك وفلسفتها... كذلك المرأة، لم تستطع مسايرة حقيقة الظروف، لكن بفضل الاحتكاكات الدائمة بالسلطة المتحكمة والاتصالات بين العمال وعمليات التوعية التي يقوم بها المناضلين، زيادة على الاطلاع على الأحداث عبر الإذاعة والجرائد والمنشورات استطاع الشعب أن يأخذ حظه من التوعية، وقد نالت المرأة نصيبها من هذه المستجدات، مما سينقل المرأة في الرواية إلى مرحلة النضال والتي رمز لها الكاتب بالفتاة التشيلية المناضلة، رمز التغيير والتطور والتحرر من أي موانع.

"حكاية بحار" صورة للواقع السوري في أوائل القرن العشرين ومحاولة لرصده بشتى أبعده. المرأة في هذا المجتمع تخضع لنفس الظروف وتمر من نفس الأحداث التي يعاني منها المجتمع : الاضطهاد والاستنزاف والاستغلال، فهي غير معترف بها ككائن قائم بذاته له غيرته وأصالته. بل هي أداة مستهدفة من طرف الرجل تابعة له (أخ،أب، زوج، قريب).

فشخصية "عزيزة" عانت من غياب أدنى حقوقها الإنسانية في اختيار الزوج،فهي فتاة من وسط فقير لم يتراجع أهلها عن التخلي عنها أمام أول إغراء مادي، فلم ينظر إلى مصلحتها ولم يراع شعورها.

أما "كاترين الحلوة" فهي صورة أخرى من صور الاستلاب الإنساني للمرأة في المجتمع السوري، فهي ضحية من ضحايا الحياة. لم تستطع مقاومة الفقر الجوع والحفاظ على الشرف...لذا تمردت على المجتمع وتقاليده وانتقمت لنفسها بأن تزوجت من خيرة الرجال وأعزهم برجولتهم وخانتهم جميعا.

إن الشعب السوري في مرحلة الرواية حصل على الكثير من حقوقه منها الاستقلال ولازال يناضل ضد الامبريالية وضد الرجعية الحاكمة المكرسة للتبعية القاهرة لقوى التحرر بالبلاد. ولم تكن المرأة بمعزل عن هذا الوضع وهذا الحراك رغم أنها لم تكن واعية بذلك لظروف الحياة اليومية للمرحلة التي صورت الرواية فقد " فتك الجوع بالحي... وأمام حالات الانهيار الصحي، كانت المرأة تبيع أيما شيء مقابل حفنة من الطحين، تعجنها وتخبزها على الصاج، وتطعم صغارها وهي تبكي."(٢١) ثم " إن الوعي كان قليلا، أنذاك كانت المطالب المهنية والحياتية معزولة عن المطالب السياسية. الحقد على فرنسا كبير، الحقد على الأغنياء يتزايد. النقمة تتبدى في العيون، لكن العدوالمباشر كان ضبابيا، فلا أحد يستطيع أن يقول إن فلانا مسؤول عن نكبتنا." (٢٢) ومع ذلك فإن الدكتورة نوال السعداوي تؤكد أنه "في سوريا اشتركت المرأة العربية في الجمعيات السرية لمقاومة عملية التتريك ١٩١٤... وفي عام ١٩١٩ شهدت دمشق أول مظاهرة نسائية بسقوط الاحتلال الفرنسي... وواجهت رصاص الفرنسيين، فاشتركت المرأة في ثورة الشعب السوري ١٩٢٥، وحملت السلاح في المقاومة الشعبية منذ إعلان هيئة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين ١٩٤٨/١٩٤٩... زيادة على مشاركتها في حوادث الاستقلال."(٢٣) لكن رواية "حكاية بحار " لا ترصد هذا الجانب بل تدفع "حنا مينة" إلى التساؤل في آخر الرواية على لسان بطله "سعيد حزوم" عن ما إذا كانت المرأة العربية ستستطيع يوما قيادة الثورات والمشاركة فيها، هذا دون أن ننس أن الزمن داخل الرواية الذي نوقش فيه الموضوع يرتبط تاريخيا بأحداث قيام الحكم الوطني، فكيف نفسر إذن هذه المفارقة؟... سنرجعها إما لطبيعة كتابات "حنا مينة" التي تمتاز بالصبغة الذكورية، أي أن أبطال رواياته رجالا، لهم صفات معينة أغلبها مكتسبة على حساب المرأة على اعتبار أن الإنسان لا يولد رجلا بل يصير رجلا، فالرجولة عنده نمط حياة وأسلوب تفكير واعتداد بالذات وبطاقة دخول إلى قلب المرأة، أونرجعها لطبيعة الفئة التي يتوقف عندها الكاتب وهي فئة البحارة بكل ما تحوم حولها من تقاليد وأعراف تشدد من حرية المرأة، أونرجعها

إلى نضاله من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية التي نذر نفسه لها والتي بدونها ستبقى البشرية معذبة عارية حافية مدماة القلب ومجروحة الأحاسيس والمشاعر.. هذا بالإضافة إلى أن التحركات التي يرصدها لنا التاريخ، والتي شاركت فيها المرأة كان بعضها بالمدن والقرى الفلاحية بشكل بارز.

المرأة في عالم "حنا مينة" قوة جبارة مع أنه لا يناصر إلا المرأة المخطئة،فإنه يحركها في فضاء زمني وفكري متنوع السلوك والرؤى، فيقدمها صادقة واقعيا متطلعة للتحرر من القيود، تكافح بدموعها أحيانا، وبإرادة الحياة لديها أحيانا، وهي نموذج للمرأة السورية التي لم تستطع القيود أن تدمر روحها.

لغة رواية "حكاية بحار" لغة شاعرية تصويرية تقترب من الشعر أكثر من النثر، فالكاتب يدقق في تصوير : الأشخاص،الأماكن، الطبيعة، الطرق... حتى يحسب القارئ أنه أمامها من ذلك مثلا أنه أفرد صفحات للكلام عن "الريس البحري" فهوقائد مجموعة الرجال البحارة، وهوالملك في مملكة عائمة على الماء ورسم صفاته بالكلمات،ويصف راغب درويش لما قدم للمحششة قائلا:" في هذه اللحظة دخل رجل في حوالي الأربعين، رمادي الشعر،غائر العينين، ثيابه الإفرنجية عليها بقية جدة وأناقة، ومن شكله وحركاته يبدوأنه طائر غريب."(٢٤) وكذا الأمر مع باقي شخوص الرواية... ويصف الحمام مثلا قائلا: "وكان الحمام يعج بالمغتسلين، كان دائريا في وسطه مصطبة إسمنتية مستديرة ينتصب فيها عمود تتفرع منه صنابير الماء وعلى الجوانب من حول الباحة تقوم بشكل دائري غرف صغيرة ذات أبواب خشبية..."(٢٥)

أما الجانب الشعري في لغة الرواية فنلمسه على طول الرواية مرافقا للعمليات الوصفية للطبيعة وبالضبط البحر، وأيضا عند التوقفات التي يقوم بها الراوي بين الفينة والأخرى، من ذلك "... تمدد على الرمل أمام الخيمة، ونظر إلى صفحة الماء المتلألئة بأشعة القمر الفضية، واستراح إلى معزوفة الموج الرتيبة..."(٢٦)، ثم " استرخى في استلقائه على الرمل، وراح يتابع انعكاسات الضوء الفضي على الفرج المتكسر على الشاطئ... ابتسم للشمس ما إن فتح عينيه..."(٢٧)، ثم " أغزل من نار المدفأة غلالة ذهبية لحبيبتي..."(٢٨) إلى غير ذلك من الأمثلة التي تعج بها الرواية. من سمة هذه اللغة البساطة والوضوح والانسيابية معبرة على مستوى الشخوص والأحداث داخل الرواية. زادها توضيحا وتفسيرا تعدد أزمنة الحكي بالرواية وتنوع الأمكنة (مدن، مرافئ، بيوت، سجون...) بتعدد انتقال وتحرك الشخصيات المحورية فيها،وزحفها من مكان إلى آخر مما قوى طابع المونولوج الداخلي بها كتقنية سردية يعتمدها الروائي، والسبب في ذلك أن أبطال "حنا مينة" يعيشون دائما في نوع من الأخذ والرد بين الذات الآنية والذات المستقبلية، لذلك يخلق البطل نوعا من الحوار الداخلي غالبا ما يكون نوعا من التساؤل عن وضع قائم أواستشارة أوتبرير لهذا الوضع أوذاك.وقد يدخل في حوار مع ذات أخرى غير قابلة للتحاور كالطبيعة والحياة والأسطورة (عروس البحر مثلا)، فنجد البطل يحاور البحر قائلا:" هل تجرأت عليك، فصرت لا مباليا حيالك؟ وهل غفرت أنت أم مازلت تشد الثأر؟ أنا لا استهين بك، ما عدا الله. والدي علمني، والعاصفة علمتني، وكذلك العمر. وها أنا، كمن يتقدم إلى الله مجبولا بالندم والتوبة، أتقدم إليك مملوءا بالخشية والرهبة، راغبا، من رأسي إلى أسفل قدمي." (٢٩)، ومن سمات لغته أيضا أنها تتمتع بجمل قصيرة سريعة، وكثرة التشبيهات والاستعارات وجمال المعنى مما يعزز تقنيات الوظيفة التزيينية والوظيفة التفسيرية في ثلاثية "حكاية بحار"، وذلك لتهيئة جوسردي أونقل لتغير درامي بأسلوب مميز مبدع فريد. و"حنا مينة" من الروائيين الذين وظفوا الجانب الأسطوري بشكل بارز، فجاءت أعماله ترشح بصور أسطورية متعددة مثل "عروس البحر"، حلم كل البحارة ومنهم "سعيد حزوم" الذي ارتبط عشقه بالبحر بعشق ما يضمه هذا البحر ويحويه، فألهمه البحر بعرائسه أكثر من حكاية أسطورية، فرؤية "عروس البحر" حلم يرافقه طول حياته وطول رحلاته البحرية "... يقال إنها تتبع السفن في ضوء القمر. ولقد وقفت في مؤخرة السفن التي عملت عليها طويلا ولكنني لم أر عروس البحر." (٣٠) وكانت تظهر له "كاترين الحلوة" في بعض الأحيان على أنها من عرائس البحر لأنها في نظره تحمل كثيرا من الخصائص الناذرة عند نساء مجتمعه... زيادة على أن عروس البحر ذكرت ٤٢ مرة في الرواية، مما جعل البطل يعيش بين عالمين عالم الحقيقة والواقع الذي لا أساس لعروس البحر فيه وعالم الأساطير الذي يتمنى دوما الاتصال به والوصول إليه. يبرر هذا في حياة البطل

"سعيد حزوم" عشقه للمخاطر والمغامرات لكنه لا صبر له على هذا العالم الذي يمشي ببطء - كما قال- يحد من طاقات الإنسان ومواهبه واندفاعاته.

ثلاثية " حكاية بحار" ليست إلا تطويرا لمواضع "حنا مينة" المطروحة في رواياته السابقة بما فيها موضوع المرأة التي يقدمها كجثة منشودة إذا ابتعدت حل محلها طيف يلونه الرجل كيفما شاء، تأخذ بعدا رمزيا مهما يتجاوز الرمز للأرض والوطن والخصب...- كما كانت تطرح في الكتابات القديمة – لتطرح كرمز للصراعات الطبقية والصراعات التاريخية... إنها كائن خفي باستمرار، متعدد الطبقات وتحتضن التغير أكثر من الرجل، وهي وحدها تصنع التقدم الاجتماعي.

جاءت رواياته غنية بكل تقنيات الكتابة المتنوعة لتدعيم الكثير من القضايا المطروحة في المتن المدروس "حكاية بحار"، فتخطت حدودها اللغوية إلى عالم متنوع يحدد تكاملا قائما بين الذات والآخر (المتلقي) سلبا أوإيجابا، مما جعلها عالما غنيا مفتوحا أمام الدراسة والتحليل... فهي أقوى دليل على أن الواقعية تستوعب جميع المدارس : التعبيرية والتجريدية والرومانسية والأسطورية إذ لا وجود لعمل فني بدون واقع، يقول حنا مينة: "لقد فكرتُ منذ قرأت عمر الفاخوري في الأربعينات، كيف يكون الأديب من لحم ودم، وليس من حبر وورق، وأدركت ألا شيء يجعل الأديب حياً، مثل أن يباشر الأحياء، ويخرج من وحدته البودليرية التي لا تتيح سوى السقم والأشباح، وأن التجربة بأوسع وأعمق معانيها، بكل أخلاقيتها ولا أخلاقيتها، هي التي تكسوهيكل الأديب باللحم، وهي التي تجعل الدم يجري في شراييه، وبذلك تؤهّله لأن يكون خالقاً حياً. يخلق شخوصاً أحياء يعيشون بيننا، ويتنفسون هواءنا، ويكونون صورة عنا، حتى إذا عايشناهم في الكتب قلنا: هؤلاء هم نحن." فهوبهذا لا يخرج عن مفهوم الواقعية كما يحددها أرنست فيشر في كتاب "ضرورة الفن" والتي تحقق الشروط الآتية:

- تحليل الواقع ونقده من خلال عقيدة واضحة، الأمر الذي يسمح بفهم جماعي لا فردي للظاهرة الاجتماعية.
- التأكيد على انهيار البنى التقليدية وعلى مظاهر الفساد والفقر والتخلف.
- الثقة بالمستقبل والتأكيد على أن هذا المستقبل المتفائل يمكن إنجازه من خلال النضال الاجتماعي والتضحية والتجربة.

فالواقع في الحياة في رأيه يصير واقعاً فنياً في العمل الأدبي وهكذا فإن مقولة "الانعكاس" تعبّر عن أشياء الوجود التي تنعكس في الذات الإبداعية، وهناك تختمر، وتعود لتعكس الواقع بصورة أخرى: "فنية" إن صح التعبير.

خلاصة القول،

لقد استطاع الروائي "حنا مينة" أن يصنع من فقره وجوعه وعريه أجمل الأعمال الروائية : ثلاثية حكاية بحار، كلها حب وشبق وجوع وتحدي وحزن وإصرار وجنون ومغامرة وتهور وشجاعة وسذاجة مفرطة... لم ينس أويتناسى الواقع المرير والحياة القاسية التي عاشها ونشأ فيها. فهوالطفل المعدم الذي بدأ حمالا ومضى حلاقا ليصبح يوما روائيا مقروءا، يذهل القارئ ويفاجئه... فصور هذه الحياة بكل ملامحها ودقائقها في روايته على لسان "امرأة"، فلم تكن كتابته عشوائية أبطالها مزيفون بل شديدة التعبير عن التحولات الاجتماعية آلاما ومعاناة ناطقة بكل بؤس في هذه الحياة وكل أمل فيها، إنه سعي نحوإبراز الوجه الإنساني في عوالم تنتهك فيها الحقوق الإنسانية، وصرخة مدوية مقنعة تطرح البؤس الإنساني وتمزق حاجز الزمان والمكان بكلمات بسيطة صادقة تنادي لقضية العدالة المفقودة بمداد البحر وبمهارة سبر أغواره، وعفوية المرأة وعالمها العائم بالحركة والتناقض. وإن كان دور المرأة يأتي دائما في مساحات أقل من الدور الذكوري مما قد يوحي بميل "حنا مينة" إلى جانب الذكر بشدة، وذلك عائد لأسباب تقنية بحتة تتعلق بتكنيك السرد الذي يتبعه والمعتمد على السرد " الحكي" المسهب والمتصاعد في تكامل درامي، وليس لرؤيته للأنثى التي جعلها تكسر دوائر التضحيات المجانية وتختار الخروج من المتاهة والضعف الذكوري رافضة أن تنصاع لأنانية الذكر لتتركه يكمل مأساته وحيدا... "حنا مينا" يرفض أن تقدم المرأة تلك التضحيات المجانية التي لم تجلب لها سوى الخراب والخسران، مع تأكيد في نماذجه النسائية على استقلالية المرأة وعدم وقوعه في فخ المرأة / المرسى المستكين كاستراحة لمغامرات البحار وحماقاته، برغم تمجيده للبطولة والمنحى التراجيدي " الاوديسي " في الرواية وذلك لأسباب نفسية تتعلق بطفولته الشخصية التي عانت من دور الرجل المتهور والمغرور والمسجون داخل نرجسيته وأوهامه.

هوامش

١- من مواليد ١٩٢٤، عاش حنا طفولته في إحدى قرى لواء الاسكندرون علي الساحل السوري. وفي عام ١٩٣٩ عاد مع عائلته إلى مدينة اللاذقية وهي عشقه وملهمته بجبالها وبحرها. كافح كثيراً في بداية حياته وعمل حلاقاً وحمالاً في ميناء اللاذقية، ثم كبحار على السفن والمراكب. اشتغل في مهن كثيرة أخرى منها مصلّح دراجات، ومربّي أطفال في بيت سيد غني، إلى عامل في صيدلية إلى صحفي أحيانا، ثم إلى كاتب مسلسلات إذاعية للإذاعة السورية باللغة العامية، إلى موظف في الحكومة، إلى روائي. ساهم حنا مينه مع لفيف من الكتاب اليساريين في سوريا عام (١٩٥١) بتأسيس رابطة الكتاب السوريين... له العديد من الأعمال نذكر منها: المصابيح الزرق، رواية، ١٩٥٤/ الشراع والعاصفة، رواية، ١٩٦٦/ الثلج يأتي من النافذة، رواية، ١٩٦٩/ ناظم حكمت وقضايا أدبية وفكرية، سيرة ودراسة، ١٩٧١ / الشمس في يوم غائم، رواية، ١٩٧٣ / الياطر، رواية، ١٩٧٥ / بقايا صور، رواية، ١٩٧٥ / الأبنوسة البيضاء، مجموعة قصصية، ١٩٧٦ / من يذكر تلك الأيام، مجموعة قصصية بالاشتراك مع د. نجاح العطار، ١٩٧٦ / أدب الحرب، دراسة بالاشتراك مع د.نجاح العطار، ١٩٧٦ / المستنقع، رواية، ١٩٧٧/ناظم حكمت: السجن–المرأة–الحياة، دراسة، ١٩٧٨ / ناظم حكمت ثائراً، دراسة، ١٩٨٠/ المرصد، رواية، ١٩٨٠/ حكاية بحار، رواية، ١٩٨١ / الدَّقل، رواية، ١٩٨٢/ هواجس في التجربة الروائية، خواطر وتأملات، ١٩٨٢/ المرفأ البعيد، رواية، ١٩٨٣ / الربيع والخريف، رواية، ١٩٨٤/ مأساة ديميتريو، رواية، ١٩٨٥/ القطاف، رواية، ١٩٨٦/ كيف حملت القلم، مجموعة مقالات وحوارات، ١٩٨٦/ حمامة زرقاء في السحب، رواية، ١٩٨٨/ نهاية رجل شجاع، رواية، ١٩٨٩/الولاعة، رواية، ١٩٩٠/ فوق الجبل وتحت الثلج، رواية، ١٩٩١/ الرحيل عند الغروب، رواية، ١٩٩٢/ النجوم تحاكم القمر، رواية، ١٩٩٣/ القمر في المحاق، رواية، ١٩٩٤/ حدث في بياتخو، رواية، ١٩٩٥/ المرأة ذات الثوب الأسود، رواية، ١٩٩٦ عروس الموجة السوداء، رواية، ١٩٩٦/ المغامرة الأخيرة، رواية، ١٩٩٦/ الرجل الذي يكره نفسه، رواية، ١٩٩٨/ الفم الكرزي، رواية، ١٩٩٩/ القصة والدلالة الفكرية، دراسة، ٢٠٠٠/ حارة الشحادين، رواية، ٢٠٠٠/ صراع امرأتين، رواية، ٢٠٠١/ البحر والسفينة وهي، رواية، ٢٠٠٢/ حين مات النهد، رواية، ٢٠٠٣/ شرف قاطع طريق، رواية، ٢٠٠٤/ الذئب الأسود، رواية، ٢٠٠٥/ الأرقش والغجرية، رواية، ٢٠٠٦/ هل تعرف دمشق يا سيدي، مجموعة مقالات.حصل على العديد من الجوائز منها:

× جائزة المجلس الأعلى للثقافة والآداب والعلوم بدمشق عن رواية «الشراع والعاصفة» عام ١٩٦٨.

× جائزة سلطان العويس من الدورة الأولى عام ١٩٩١ على عطائه الروائي.

× جائزة المجلس الثقافي لجنوب ايطاليا، فازت بها رواية «الشراع والعاصفة» عام ١٩٩٣، كأفضل رواية ترجمت إلى الإيطالية.

× جائزة «الكاتب العربي» التي منحها اتحاد الكتاب المصريين بمناسبة مرور ثلاثين عاماً على تأسيسه، اعترافاً بموقعه المتميز على خريطة الرواية العربية.

× وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة بتاريخ ٢٠٠٢/٥/٢٨م.

٢- رواية حكاية بحار، حنا مينة، دار الآداب / بيروت، الطبعة الأولى شباط (فبراير) ١٩٨١.

٣- المصدر السابق، الصفحة ٧.

٤- رواية الدقل، حنا مينة،الكتاب الثاني من رواية حكاية بحار، دار الآداب / بيروت، الطبعة الأولى مايو١٩٨٢، الصفحة ٢١٧.

٥- رواية حكاية بحار، الصفحة ٢١٢.

٦- المصدر السابق، الصفحة ١٨٢.

٧- المصدر السابق، الصفحة ١٨٤.

٨- المصدر السابق، الصفحة ٢٨٣.

٩- رواية الدقل، الصفحة ٢٤٢.

١٠- المصدر السابق، الصفحة ٢٩٣.

١١- رواية المرفأ البعيد، حنا مينة، الكتاب الثالث من حكاية بحار، منشورات دار الآداب /بيروت، الطبعة الأولى / حزيران ١٩٨٣.

١٢- رواية حكاية بحار، الصفحة ٢٣٤.

١٣- رواية الدقل، الصفحة ٢٧٠.

١٤- المصدر السابق، الصفحة ٢٨٠.

١٥- رواية حكاية بحار، الصفحة ٢٤٣.

١٦- المصدر السابق، الصفحة ١٤٢.

١٧- رواية المرفأ البعيد، الصفحة ٢٤٣.

١٨- رواية حكاية بحار، الصفحة ٤٢.

١٩- رواية المرفأ البعيد، الصفحة ٣٣١.

٢٠- رواية الدقل، الصفحة ٥٦.

٢١- رواية حكاية بحار، الصفحة ٢٦٣.

٢٢ - المصدر السابق، الصفحة ٢٦٢

٢٣- نوال السعداوي، الوجه العاري للمرأة العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى أكتوبر ١٩٧٧، الصفحة ١١٩.

٢٤- رواية الدقل، الصفحة ٢٢٢-٢٢٣.

٢٥- رواية حكاية بحار، الصفحة ٥٤.

٢٦ المصدر السابق، الصفحة ٢٥.

٢٧- المصدر السابق، الصفحة ٢٦.

٢٨- المصدر السابق، الصفحة ٤٣.

٢٩- رواية المرفأ البعيد، الصفحة ٥.

٣٠- رواية حكاية بحار، الصفحة ١٣.